أندلسيات لجروح العراق

. بشرى البستاني .

دباباتُ الغزوِ تدور.
تسائلني الأسلحةُ العزلاءُ عن السرّ
وأسألها عن نبضِ الفجرِ
وأجثو عند خزائنِ بغداد وآشورْ،
أُمسك قلبي من وجع التفاحِ
عناقيدُ النخلِ على الأعوادِ.
الكابوسُ يعاودني،
أَشهقُ في قاع الجبِّ
وأَبحث عن سيّارةِ أهلي.
أسأل غصنيْن ينامان
على صدري..
عن سرّ الجميلِ الصامتِ في قلب الصحراءْ.
أرقى درجاتِ الوجْد
مغمضةَ العينينِ
وأُمسكُ بَرْقَ البلّور.
...
دبّاباتُ القتلِ تدورُ.
بغدادُ..
سمرقند.
غرناطةُ تنهد.

ثانيةً يُوغِل هولاكو في قمصانِ المدن التعبى.
ثانيةً يَقْطع هولاكو
شريانَ الحبرِ الأسود.
هولاكو يترَصّدني،
يَقْطع رأسي،
يُودِعه في صندوقٍ مقفل،
يرميه في البحر.
يدور البحرُ،
اللعبةُ ترتدّ على نحر البارجةِ الأمريكية.
تتحرّر من قلبي لغتي
أُطلقها نحو الصفصافِ،
وأبكي..
...
دبّاباتُ الغزوِ تدورُ.
الأسئلةُ الخرساءْ
تذوي..
صندوقُ الدنيا
خبّأ عاصفةً يَنْشرها الموتُ
على حبلِ غسيلٍ يرميه الشهداءْ
نحو الوديانِ.

حنينُ البوح
مختنقٌ خلف سديمِ الكلماتْ.
بين الينبوعِ
وبين المشهدْ
قمرٌ أسودْ،
ونجومٌ من طينٍ تعدو في الفلواتْ.
...
دبّاباتُ الغزو تدور.
فوق الدبّابة قبرُ رسولِ الله يصيحُ:
غثاء السيل،
الليل،
دقّاتُ الساعة تنهضُ من خَصْرِ خريفٍ من كهفٍ
صار سريرًا للموتِ،
ومن مدخنةٍ حيرى فوق سقوف الكلمات
يستدرجني الصيفُ إلى الوردِ الخدّاعِ
وأستدرجه نحو سرابٍ محتدمٍ بعيون القتلى.
الأعمى يُبصرُ عطرَ النارنج،
فأُقفل نافذتي،
وأُلوذ بظلٍّ حبائلَ يُسْدلها الليلْ

فوق حفيفِ الجرح المتدثر بالدغل
تدْهمني عيناكَ وتعطيني السرّ،
أقطف من ومضتها العطرْ،
ينقطع التاريخُ الأخضرُ
بين جذورِ الصبوةِ
والأغصانْ.
...
دبّاباتُ الغزو تدورُ.
يلوِّثُ ثوبي نفثُ الدبّاباتْ
تَثْقبُ روحيَ عين الأمريكي الرافلِ
بالزَّبدِ
القابعِ خلف دروع العرباتْ
أزرارُ قميصِ الأمريكي
دموعُ الليل على مُقَلِ العذراواتِ.
هديرُ الدبابات
يَزْرع في قلبِ الأرضِ
دموعًا أخرى.
...
دبّاباتُ السلب تدور.
تفتّش كفُّ الأمريكي جيوبَ الصحراءْ
تجثو فوق عرينِ الزيتِ الأسود.
يَسْكت صوتُ الرعد
فيه، وتخبو النيران.
تبكي الطيرُ حواليهِ،
وتشتعل الأغصان
حول الدبابةِ يعترك الركبانْ.
جاءت..
ذهبتْ
دخلتْ
حرنت
وتدلّى من ثقب الشمس حصانٌ ميّتْ
صهوتُه سَدّتْ وجهَ الشرق
ووجهَ الغرب.
فوق الصهوةِ
كانت ومضةُ عينكَ تدعوني
لوليمةِ حُبْ.
...
دبّاباتُ الغزو تدور.
يشتعل البحرُ على خصرِ الصحراء.
النخلُ على صدر البدويّة
تُرخي في الفجر ضفائرَها،
تَفْتح ساعدَها للنجمِ الكذّابِ
فيَخْجل وردُ الليلِ
ويرتدّ الشجرُ المطعونُ ببرقِ النايات.
جبالٌ تفتح في حزني معطفَها،
وطيورٌ تأكل من ياقوت الحلمِ.
قبورُ الشهداءْ
تَنْهضُ في الفجر،
وتَهْبط للنهر.
يمامٌ أخضرُ يتبعها
ويحفّ بها النرجسُ،
ينثال عليها الطلُّ الأخضرُ.
باسقةٌ أوجاعُ الشجر الباذخِ
طَلْعُ الحزن نضيدٌ..
تبكي الأرضُ من الحمّى.
...
دبّاباتُ الغزوِ تدور.
شواطئُ دجلةَ غبراءُ،
انفضّ السمّارْ
حواليْها..
السمكُ الميّتُ يعلو ضفَّتَها،
الطحلبُ كدّر صفوَ الماء.
تبكي دجلة في قلبِ الليل.
زفيرُ الثعبان يريق النارَ
على أعمدةِ الكونِ.

سريرُ العنقاءْ
محمولٌ بيد الزوبعةِ الصفراءِ.
وقلبُ الليلْ
يَنْزف أندلساً أخرى.
وفلسطينْ..
تَطْلع من عين غزالٍ
زنبقةً تطفئها الشمسُ.
غبارُ الطلقات الخلّب يُوجع قلبَ الأرضْ.
يتّكئ الزيتونُ على وردِ الشيح
ويبكي.
...
دبّاباتُ الحقد تدور.
غرناطةُ تعدو في قمصانِ الليلِ،
يلاحقها الذئبُ التتريْ.
تصلُ البصرةَ،
يُوقفها الأمريكيُّ على السلك الشائك،
تَزْحف في ذي قار
بين جذور النخلِ الممتدةِ من أوتار الحزن بسومرَ،
حتى قلبِ النار.
وعراقُ الأروقةِ الجذلى ينزف في الأغلالْ
حقلُ الزيتونِ الغارق في قطرةِ دمع
يتحدّاهم في القمرِ الطالع
خلف الدارِ.
جنائنُ بابلَ ظمأى،
يرتعش الصمتُ على شفتيْها،
وعلى كتفيْها يذوي الوردْ.
وطواحينُ فراتٍ تَطْلع من خاصرة الوجدِ
تلمّ شظايا الموتِ
عنِ الأدغالْ.
...
دبّاباتُ السَّلْبِ تدور.
في حجرات المشفى
يقتنصُ الأمريكيُّ غطاءَ الموتى.
يعدو في الردهات، وعَبْرَ النارِ، المَرْضَى.
تَنْهض في مفترق الطرقِ الليلية
أشباحُ القتلى.
نُهبتْ في غبشِ الفجرِ مقابرُهم،
وارتجّت تحت عويلِ الريح
جروحٌ ما زالت تَنْزف في أحشاءِ الليل.
قالِ الجبلُ الباذخُ للوردة:
«ضُمّيني..»
واجتاحهما السيلْ.
...
دبّاباتُ الغزو تدورُ.
معابرُ بغداد تبكي.
الأنهارُ،
الأسماكُ،
الشرفاتْ
تبكي.
وقبورُ بني العباس
أتْعبها زحفُ العرباتِ على قلب الأرض.
الآباءْ
يُخْفون الطَّلقاتِ بصدرِ العذراواتِ؛
ضفائرهُنَّ على الرملِ
يُخضّبها الدمْ؛
وجعٌ - في أعينهنّ - عراقيٌّ.
دمعٌ..
وجلٌ مما كانَ،
وما سوف يكونْ.
هبط المرجانُ من الدوحْ

هل قلت: الموتْ..

علمُ السيمياءْ

خجلٌ من ضوضاء الموتى!

...

دبّاباتُ الغزو تدور.

فراشاتُ الفجر يطرّزن مناديلَ الحزنِ

لأطفالٍ مقتولينْ،

ويعطّرنَ غلائلَ للشهداءِ.

شموسٌ عشرون انطفأتْ،

وليالٍ عشرونْ

عبرتْ.

أقمارٌ عشرون انكسرتْ في شجر الدمع الأصفرِ.

مَنْ ذا خلفَ البابِ؟

شهيداتٌ بعباءاتٍ بيضاء وأجنحةٍ خضرٍ

يَدْلفْنَ إلى غاباتِ النخلِ

يخبِّئن سلاحَ الفرسانِ.

شهيداتٌ بعيون حوراءَ

يظلّلها غيمُ الفقدانِ

ويُثْقلها الوجدُ.

رذاذُ الموت

ينثال على قممِ الصخر.

وفي الوديان

شمعٌ يَذْبل خلف ستائر بغداد؛

نسماتُ الحزن على أشجار الليمون؛

نبوخذ نصّرُ والخلفاء

بجلالٍ يَبْكون بصمتِ الليلْ.

...

دبّاباتُ الموتِ تدورُ.

تداهمني عيناكَ

بريقٌ أخضرُ يغزوني في عزّ الليل.

أَفتحُ بابي

يَدْخلُ عطرُكَ..

يَكْبرُ..

يَنْشر أجنحةَ التفاحْ

تهوي الألواحُ على مائدةٍ ظمأى

يشتعل الوردُ برمل الحزنِ وأردانِ النخلْ

ويغادرني المحتَلْ.

...

دبّاباتُ الغزو تدور.

يحاصرها الغيمُ

وتُرْبكها الريحُ.

غبارُ الصحراءِ المجروحُ يعاود ذبحي.

كَفَني ثوبُ الجبل الفضيّ،

حفيفُ الصفصافْ

سدري.

تنشقّ الأرضُ عن الشارةِ،

تعطيني وهجَ الزنبقِ في عزّ الظهرِ

وأُعطيها قمري.

يتلألأ فوق غلائلِ عمري

دمُكَ الياقوتيّ.

أكفُّكَ كانت وسطَ هديرِ الدبّابات

تطوِّق خصري؟!

...

دبّاباتُ الحقدِ تدور.

قميصُ حبيبي في أعلى الدبابةِ.

أَعْدو خلف عبيرِ العَرَقِ المتصبِّبِ من كتفيه،

وراء عناقيد الرُّطَبِ المصلوبِ على عينيه.

حبيبي يَرْكض خلف رواقٍ أخضرَ،

خلف شتاءٍ صهوتُه الحبُّ

وصبوتُه الطيرُ الواكنُ في العشِّ.

حبيبي يَحْمل وسط عويلِ الريحْ

أورادَ الأرضِ
وحكمةَ رُبّانٍ مجروح.
...
دبّاباتُ الغزو تدور.
فوقَ الدبّابة زنارٌ مقطوع،
عطرٌ صحراويٌّ يتدحرجُ في المنعطفاتِ
تلاحقه العربات.
فوق الدبّابة دجلةُ لوحٌ من طين،
وغبارُ الحزنِ أنينْ.
الوردُ المتلعثمُ تحت الأسلاكْ
يَشْهقُ:
نيسان لهاثُ الجرح المتخثّر
في قعر الأقداح
تَدْهمه العرباتُ الليليةُ
والصفّاراتْ
تَهْدم أبراجَ الحلم على شفة الفجر
الملقى بين الأسلابِ
وتحت حوافر خيلٍ غرثى،
بين رسائلَ مفتوحة
يتأول أسطرَها العِلْجُ القادمُ من باحاتٍ عاريةٍ
وضياءٍ مثقوبْ.
والقفصُ الأسودُ يعلو في الأفق،
القفصُ الأسودُ يقتنصُ الشرقَ.
الموجةُ تعلو
وتداهم رأسيْنا.
...
دبّاباتُ الغزو تدور.
فوق الدبابةِ منديلٌ لحبيبيْنِ التقيا
وسط عباب القصفِ
وتحت النيرانْ.
«ضُمّيني،» قال لها..
فانْهَمَرَ البجعُ الأبيضُ من عينيْها
وتوارى الغيمْ
تحت عباءتها.
قالت: «خذني»
وانفضّ الغربان.
...
دبّاباتُ الغزو تدور.
تسدّ عبابَ البحرِ.
الموجْ
يقتحم القافلةَ السوداءَ
فتمطرها الغيمةُ أحراشًا.
يستلقي الحوتُ على الضفة التعبى
ويغيم الياقوت.
عرباتُ الحقد تدورُ
تسدّ نوافذَ بيتي،
تَدْهمني الشمسُ بعزّ الليلِ،
فأبكي.
كفٌّ تتسلل،
تَفْتح صدري للنور
فيرتعب الديْجور.
أصحو في الفجرِ على صوت الإطلاقاتِ
ألمٌّ شظايا العتمة فوق سريري.
يتساءل طفلٌ في شرفة قلبي
عمّا يفعله الأمريكيُّ
على البوّابات.
...
دبّابات الحقدِ تدور
منكفئ مثل حصان مهجور
جرحي..
تَلْفحه الشمسُ العربيةُ
يَنْخره الدود.
پيكاسو يَرْسم جرنيكا أخرى،

يَرْسم بغدادَ طريحةَ أقدامِ الغوغاءْ
والحريةَ عودْ
يَعْزفه القزمُ الموؤود.
ألواحُ متاحف بغدادَ بكفّ الريح،
والثورُ الآشوريُّ الباسمُ مرتعبٌ
غادر مرتبكًا
وبكى
في أركانِ المتحفِ والمنعطفاتْ
كانت قيثاراتْ
سومرَ تعزف لحنَ الحزن.
...
دبّاباتُ السلب تدور.
بغداد تنام على عطبِ الورد
وأسلابِ الياقوت.
مرجانُ مآذنِها في أيدي السلاّبة،
والقرنُ الحادي والعشرون منكفئٌ
يرتجف الحجلُ الأصفرُ في شفتيه.
الجرحُ رمادْ،
عطرُ الشيِّحِ على الأعوادِ.
صريخُ الليلِ،
صهيلُ الخيلِ،
نشيجُ الحوريات
بغدادُ،
اللوعات،
العبراتُ
الطعنات،
ظهرُكِ يَنْزفُ،
مفتاحُكِ ثانيةً في جيب الأمريكيّ
يخضّبه الدم.
يا ويلي!
قمرُ الحلم
صار وسادة،
وعظامُ الأطفالِ وقود.
...
دبّاباتُ الموت تدورُ.
الأكماتُ،
الشبكاتْ،
أولادُ الأفعى وزُناةُ العصرِ.
لهيبُ النار يَطُولُ صفوفَ الأطفال
تتوجّع دهشتُهم
تَفْتح أعينَها في الصبح حقائبهم.
كتبُ الأطفال،
دفاترُهم
تتلفّت حيرى،
الجندي الأمريكيّ
يُطْلق نارًا فوق جبينِ صبيٍّ
منتفخِ الصدر.
سقَطَ الطفلُ ببركة دم.
إذ فكُّوا صدرَهُ،
كانت أرغفةُ الخبزْ
تَنْزف تحت قميصه!
...
دبّاباتُ الغزوِ تدور.
فوق الدبابة رفَّتْ سعفةُ نخلٍ
وسؤال
يستدرج من قلب الطين طيورَ الحبّ.
يناولني كأسًا صفراءَ.
الأرضُ مشاكسةٌ،
والسيركُ
تحرّكة الزوبعةُ السوداءُ
« مهرِّجُ آخرِ هذا الليلْ
لا يَصْلحُ للظهرْ.. »
هذا ما قالته امرأةٌ

كان صهيلٌ أخرسُ يَلْبس معطفَها
يَحْرسُ في الليل دموعَ غوايتها.
«لن أستسلم،» قالت
وانبثق الماءُ الأخضر
من كفيها.
...
دبّاباتُ الغزو تدور.
المتنبي يُشْعل أشجارَ الكوفةِ،
والأقمار
تتساقط في قاع الجبِّ،
نجومٌ تنشجُ في زاويةِ البستانِ،
وسائدُ بنت السلطانِ
يخضبُها الدم.
يا ويلَ الغالب من مغلوبيه!
حبلُ الشمس الغارب
يَنْشج خلف الأغصان.
...
دبّاباتُ الغزو تدور.
أبو تمامٍ يَنْشر بائيَّتَهُ
فوق ضفاف الكرخِ.
الدباباتْ
ضِيقتْ في كُتُب العرّافاتِ.

انكسرتْ مُقَلُ العذراواتِ
على شرف الجسرِ.
الخلجانْ
تجمع أردية الريح من المنعطفاتِ
وتعطي الفجر
كلماتٍ تَزْحف من حُرق الباءِ
إلى دالِ الوجد،
والنقطةُ يأسرها وجعُ الغزلان.
دجلة تَزْحف في كبد النيرانِ،
فيرتعب الجندْ
من فوح شذًى يَطْلع من وجنات الصخر
يجتاح حرير الماءِ،
وأطراف ربيعٍ مقفل
يبحث عن قمرٍ للفلواتِ
وعن سرٍّ للفعل
كي ينجوَ هذا الحجرُ المعقودُ
على جبهاتِ الغدْ.
...
دبّاباتُ الغزو تدور.
السيّابُ يشكِّل رأسًا يَنْزف منه الحلمْ،

ويخطِّط حوريّاتٍ تعدو بين النخلِ
وتُشْعلُ في أذيال النهرِ النار.
تسعى في شطّ العرب الأفعى،
في فمها تَحْملُ مفتاحًا
تَحْمل إبليسَ إلى آدمَ.
ظهرُ الحوتِ سؤالْ
يهوي فوق السنبلِ
يبحث عن خلجانٍ أخرى
وخنادقَ لم تُقْهر بعدُ.
السيّاب..
يعزف أغنيةَ الأمطارِ/وآبْ
مندهشٌ من رملٍ يتأمّل أحذيةَ الجند الأمريكية
كيف تصير قواقعَ!
كيف يصير عراقُ الأبنوسِ
خرائطَ في كفّ تطويه
وتنشرهُ/باسم الحرية تهوي الأبراجُ.
التمثالُ يغادر شطَّ العربِ،
البصرةُ تَجْرح معصمَها
كي لا تغفو في زاوية الخندقِ!
والسيّابْ..

يَرْفع فوق شناشيلِ الحزن
جراحَ وفيقةَ
تتبعه الأشجار.
...
دبّاباتُ الغزو تدور.
فوق الدبابة خاتمُ أنثى
يَلْمع في وهج الشمسِ
ويرقى عبر سلالم تَعْزف حزنَ القدس.
مرداةُ الحزن طحونٌ
يَثْقب عطرَ الليل هديرُ الطياراتِ
وهمهمةُ الجندِ.
الموصلُ تُوجعها ثرثرةُ العرباتِ،
الريحانُ يفتّح قلبَ الموسيقى
في غور الليلْ.
يَطْلع وردٌ في خصر الجبلِ الفضيّ
ويَسْقط تمثالْ
تَشْرب رغوتَها الأشجار.
...
دبّاباتُ الغزو تدور.
في أعلى الدبابةِ زهرةُ فلٍّ
من بستاني.
«مَنْ قَطَعَ الزهرة؟
مَنْ أعطاها الجنديَّ الأمريكي»؟
قالت عن بعدٍ وهي تَفُوح
من باب الشمس: «سأطلع ثانيةً
لأعود
نحو ترابٍ يَنْهضُ من أردية الحمى
ويلمّ شظايا الروح.»
...
دبّاباتُ الغزو تدور.
في مائدةٍ قربي، الأمريكيةُ كانت
تَفْتح تحت الشمسِ ضفائرَها
وتشكّل من خُصَلِ الشعر
أروقةً
دولاً،
وخرائطَ أخرى.
ومجنَّدةٌ عاشرةٌ،
كانت تتأمّل في وهج الشمس
مغازلَها.
قلبُ الأرض يدور على ساقٍ عرجاءْ،
والأفقُ
ثعبانٌ يتلوّى في ظهرٍ معتم.
والشمسُ العربية سوداءْ
كانت عبر نوافذ بيتي
تبكي في عزّ الصيف.
...
دبّاباتُ الغزو تدور.
الليلةَ أكتُبُ حزني
فوق جذوع الجوزِ،
وأُبصرُ صخرَ القدسْ
يتدحرج فوق مآذنِ بغدادَ.
أخبِّئ جرحي في قلبِ ضميرِ الخيمة.
دمعُ التفاح دمٌ
يتخثّر في كأسٍ عطشى
نهرانِ يدورانِ على جيد البستان،
يَصلانْ
بغدادَ بعكّا.
مرهَقةٌ بغدادُ،
ومجروحٌ معصمُها،
سرُّ الرُّمّان على وجنتها
يذوي في الأصفاد.

الموصل (العراق المحتلّ)